الروح الأندلسية في شعر شوقي

للدكتور عبد الصبور رضيف محمد

إذا نظرنا إلى شعر شوقي فسنجد أن أول طيف للأندلس يطل علينا من وراء قافية بيت له ، من قصيدة ألقاها عام ١٩٨٤ في مؤتمر المستشرقين المنعقد في جنيف ، عرض فيها لرسالة الإسلام التي نبتت في البيداء وأطلعت من الصحارى ، من قلب الخيام أسوداً فتحوا الدنيا وقادوها (١) نحو النور ، ونشروا فيها الحضارة وحكموا بعدلهم الأرض ، وفي ذلك قال :

تشهد الصين والبحار وبغدا د ومصر والغرب والحمراء (٢)

فهذه الحمراء رمز للحكم العربي والحضارة الإسلامية في الأندلس وهي صورة غامضة تمثل في ذلك رصيد شوقي من « الفكرة الأندلسية » في شعره .

وتعود هذه الصورة الغامضة أيضاً ، فتراها في بيت من قصيدة شوقي التي رفعها إلى السلطان ، عندما نزل في ضيافته في الآستانة عندما قال (٣)

ويبيت الزمان (أندلسيا) ثم يضحى وناسه أعجام (٤)

وكأن ناشر ديوان شوقي أحس بغموض الصورة أيضاً ، فحاول إيضاحها حين فسر الزمان الأندلسي في الهامش بأنه زمان الأندلس أيام عز العرب والإسلام فيها .

---

(١) الشوقيات ١/٣١ (٢) الشوقيات ١/٢٤٢

(٣) الحمراء قصر مشهور بالأندلس

(٤) أندلسيا : أي مكان الأندلس أيام عز العرب والإسلام فيها .

وتظل الصورة قائمة لايوارويها غموض حين تعود إليها مرة ثالثة فى القصيدة التى يمجد فيها السلطان محمد رشاد الخامس ويخاطب فى آخرها الآستانة ويناجيها نجوى محب هائم بها، ينتمى إليها بصلة الدم والعرق من طريق أمة أبيه فهى إذا مهد أصوله ، وقد حركت شاعريته وأطلقته قبسا يضىء الشرق ، قبسا فريداً .

لم تكثر (الحمراء) من نظرائه نسلا ولا بغداد من أمثاله (١)

والحمراء هنا — يحشرها فى زمرة واحدة مع بغداد ، والآستانة يجب أن تعكس مفهوم العاصمة الإسلامية الكبرى التى يؤمها الشعراء من كل جانب، ويزدحم على أبوابها أصحاب المواهب فتكون لكل منهم مصدر وحيه وإلهامه، حسن إذا بزغ نجم العبقرى منهم فيما خفقت أجنحته فى سمائها فى هالة من النبوغ والمجد والخلود .

وتعود صورة الأندلس مرة رابعة عندما يزور الخديو عباس مدينة طنطا وحين بعث الحياة والعمران فى رسمها البالى (٢) .

أنظر إلى كل عال من معاهدها تنظر « طليطلة » فى عصرها الخالى

فطليطلة هنا تمثل دوراً لم يكن لها فى تاريخ الأندلس وصاحب هذا الدور العظيم فى حياة الأندلس هى قرطبة وجامعها الكبير ، فإلى قرطبة لا إلى طليطلة كان الطلاب يقدمون من الشرق والغرب لينهلوا منها العلم ، ويتزودوا من المعرفة ، وشوقى حين وصل إلى طليطلة هذا الدور لم يكن رصيده الأندلس .

ولانقول إن الوزن الشعرى هو الذى جاء (طليطلة) ولم يكن قادرا على الاتفاق بقرطبة ، فمثل شوقى الشاعر الكبير لايستعبده الوزن ولاتحكمه الصنعة .

---

(١) الشوقيات ١/٧٢ (٢) نفس المرجع .

إلى هنا تظل صورة الأندلس غامضة غائمة فى شعر شوقى ، وان تفتح لأعيننا بعض الخطوط فيها إلا فى عام ١٩١٢ عندما تنهمر دموع الشاعر أثر سقوط أدرنة فى يد « البلقان » وبسقوطها هوى الإسلام عن مقاطعة مقدونيا الإسلامية ، وضياع مقدونيا فى عين الشاعر صورة ثانية لضياع الأندلس (١) فقد خرج المسلمون من الأندلس وهاهم أولاء اليوم يخرجون من مقدونيا. فمقدونيا إذاً أخت للأندلس ، أهى أندلس جديدة من حق الشاعر أن يبكيها ويصور الجرح الذى أصاب المسلمين بسقوطها (٢)

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والإسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العالمين ظلام
أذرى به وأزاله عن أوجه قدر يحط البدر وهو تمام

ومقدونيا والأندلس جرحان أصيب بهما المسلمون من عرب وترك .

جرحان تمضى الأمتان عليهما هذا يسيل وذاك لايلتام
بكما أصيب المسلمون وفيكما دفن اليراع وغيب الصمصام
لم يطو مأتمها وهذا مأتم لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
مابين مصرعها ومصرعك انقضت فيما نحب ونكره الأيام
خلت القرون كليلة وتصرمت دول الفتوح كأنها أحلام
والدهر لايألو الممالك منذراً فإذا غفلن فما عليه ملام

وبعد أن يصف المسلمين الماربين المهاجرين بعد سقوط مقدونيا ، يخاطب الأمة العثمانية فينعى عليها تفرقها وتخاذلها ، ويدعوها إلى الاتحاد والوئام وترك التفاخر والغرور فيقول :

وقف الزمان بكم كموقف «طارق» اليأس خلف والرجاء أمام (٣)

---

(١) أسبانيا كما يراها السياح المسلمون (٢) الشوقيات ١/٢٧٢
(٢) الشوقيات ١/٢٧٩

فوقف ابن عثمان اليوم كموقف طارق فاتح الأندلس حين أحرق سفن الجيش ثم خطب فى الجيش ، أن البحر وراءه ، والعدو أمامه، فاذا نكص عن القتال وقع بين عدوين ليس منهما غير الهلاك ودعا الجند إلى الصبر والعزيمة والصدق .

هذه الصورة الحزينة الجريحة التى يرسمها شوقى لنكبة العثمانيين فى مقدونيا أضفت بألوانها على الصورة الأخرى التى أراد أن يصور فيها نكبة العرب فى الأندلس ، ليعقد بين الصورتين صلة ، ويقارن بينهما ، ولكننا إذا اقتنعنا بما تقدمه هذه المقارنة من الخطوط المتشابهة ، والألوان المتماثلة بين الصورتين قلنا إن رصيد شوقى من الفكرة الأندلسية لايزال فقيرا .

ونحن بعد هذا نستطيع أن نؤكد أن رصيد شوقى من هذه الفكرة عام ١٩١٢ لايزيد عما له فى الأندلس الجديد، وسنجد أن الروح الأندلسية ستظهر واضحة فى شعر الشاعر المنفى ؛ ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها فى عام ١٩١٨ أصبح فى حرية تتيح له أن يسيح فى أرض أسبانيا متنقلا بين ربوعها وقد قام فعلا برحلة يروى فيها ظمأه لزيارة هذه البلاد ، وقد زار مدن طليطلة وأشبيلية وقرطبة وغرناطة ، وكما يقول (١) كان البحترى رفيقه فى هذه الرحلة وكان قد أعجب بسينيته فى وصف إيوان كسرى حتى أنه كان يتمثل بأبياتها كلما وقعت عينه على أثر من آثار العرب بهذه المدن ورأى أن البحترى انعظ بالآثار وخلدها فى ديوان شعره فرغب فى أن يترسم خطاه فى كسب العظة والعبرة من آثار هذه المدن وتخليدها ناسجا على منوال البحترى فألف قصيدته على وزن وروى سينية البحترى فإذا هو تائه فى غابة من أشجار المرمر وتلك هى سوارى المسجد قد بدت فى استوائها مثل الفات الوزير ابن مقلة المعروف بجودة خطه (٢) .

---

(١) راجع الشوقيات ٢/٤٤ (٢) الشوقيات ٢/٥٠

بلغ النجم ذروة وتناهى بين ثهلان(١) فى الأساس وقدس(٢)
مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسى
وسوار (٣) كأنها فى استواء ألفات الوزير فى عرض طرس(٤)

ويطوف شوقى بأرجاء المسجد ، حتى يصل إلى المحراب ، ويرى عليه من بديع الخطوط فيذكر بالثناء والتقدير بانى المسجد عبدالرحمن الداخل(٥).

ومكان الكتاب يغريك ريا ورده غائباً ، فتدنو للمس (٦)
صنعة الداخل (٧) المبارك فى الغر ب وآل له ميامين شمس (٨)

ويستثير عبد الرحمن الداخل إعجاب الشاعر ، فصقر قريش يظل عربى غامر بنفسه ليقيم لأسرته ملكا جديدا فى الغرب ويخفق قلب الشاعر وهو يذكر أنه الآن فى الرحاب التى أسس فيها الداخل دولة الامويين، والتى تضم أرضها عظامه ؛ فينطلق لسانه بالشعر يتغنى بأمجاد ذلك الصقر ، ويختار شوقى هذه المرة لحنا أندلسيا ، فيعزف لنا على قيثارته موضحة يرسم فى مقاطعها صورة البطل الاموى . منذ قدومه من المشرق . إلى تأسيس الدولة الاموية فى المغرب .

لم يدع ظلا لقصر « المنية » وكذا عمر الأمانى قصير
كنت صقراً (٩) قرشيا علما ما على الصقر إذا لم يرمس

---

(١) ثهلان : جبل بالعالية (٢) قدس : جبل عظيم بنجد
(٣) السوارى : واحدتها سارية وهى الأسطوانة « العمود »
(٤) الوزير يعنى به ابن مقلة المشهور بجودة الخط .
(٥) الشوقيات ٢/٥٠ (٦) رياورده : أى رائحة ورده .
(٧) الداخل : هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أبو على مؤسس الدولة الاموية بالأندلس .
(٨) الشمس : الابادة (٩) صقر قريش هو عبدالرحمن الداخل لقبه أبو جعفر المنصور أنظر الأدب الاندلسى ص ١٠٧

إن تسل أين قبور العظما ؟ فعلى الأفواه أو فى الأنفس(١)

فى هذا القصر العربى قضى شوقى فترات طويلة. يطوف فى أبهائه ويتنقل فى حجراته . ويرى القسم الذى أضافه الاسبان إلى القصر يشوهون به جماله الخالص . فبدأ خليطا من الطرازين الشرقى والغربى . كان شوقى يبحث عن الملك الشاعر المعتمد بن عباد وزوجته الشاعرة الجميلة الرويكية وابنتها بثينة وجدتها العبادية . ولكنه لم يجد أحدا منهم فى القصر . فقد داهم يوسف الملك العبادى . ونفى الأسرة المالكة كلها . غير أن بحث شوقى عن أبطال روايته وأميرة الأندلس لم يضع سدى . فأطياف هؤلاء تضيق بها أجواء القصر الخالى . وتموج بها ظلال الحدائق العربية القلب وراء القصر الحزين وخيال شوقى قادر على أن يلتقى بهذه الأطياف . ليتبين ملامحها من قرب ، ويتمثل من خلالها وصفه الأيام الأخيرة لحكم ابن عباد فى إشبيلية ، قبل غزو المرابطين لها .

يبدو أن غرناطة كانت آخر مدينة فى الأندلس تركت فى نتاج شوقى الأندلسى صورة لآثارها .

كانت غرناطة آخر معقل للعرب فى اسبانيا وذلك بتسليم أبى عبد الله الصغير آخر ملوك بنى الأحمر إلى فرديناند وإزابيلا مفاتيحها ، خرج العرب منها وخلفوا فى هذه المدينة أضخم أثر عربى ، تزهو اليوم به الأندلس ، وتهب إليه قلوب السياح من كل مكان فى الأرض ليروا إحدى معجزات الإنسانية ومعجزة الحضارة العربية والفن الإسلامى فى إسبانيا إنه قصر الحمراء ، حصن غرناطة ودار بنى الأحمر ، ولا يزال إلى اليوم كما تركه أبناؤه الأمجاد ، أعجوبة فخر الألباب يفتن زائريه .

---

(١) الشوقيات ص ١٧٨ ج٢

يقع قصر الحمراء فوق آكام عالية تطل على غرناطة تحيط به جنات وارفة الظلال من حدائق القصر ، ويشرف على هذه الآكام جبل شيرى والثلوج تتألق عليه تألق الفضة ولا تفارق قممه فى الصيف ولا فى الشتاء ، فهو شبيه بالمرمر كما بدا لعينى شوقى(١) :

حصن (غرناطة) ودار بنى (الأحـ ـمر) من غافل ويقظان ندس(٢)
جال الثلج دونها رأس (شيرى) فبـــدا منه فى عصائب برس(٣)
سرمد شيبه ، ولم أر شـــيبا قبـــله يرجى البقاء وينسى

وقبل أن يصل شوقى إلى الحمراء لا بد له من صعود ذلك الطريق المنحدر المظلل بأغصان الشجر الكثيف ، وإذا كانت السنون الخمسون يؤذيها مثل هذا الصعود مشياً فعلى الشاعر أن يتمهل فى السير ، وأن يقف قليلا عند الباب الكبير المسمى بباب العدل ليرى على قوسه تلك اليد الهائلة المنقوشة بأصابعها الخمس ، إنها فيما يقال : رمز العقيدة الإسلامية بأركانها الخمسة .

قصر الحمراء :

ولا نحسب شوقى الآن بحاجة إلى الدليل ، فالشاعر العربى الآن يطوف فى محراب قصر بناه أجداده ووضعوا فيه شيئا من روحهم ، وملأوا جدرانه بالآيات والأشعار العربية ومن البداهة ألا يحتاج الإنسان فى بيته إلى دليل .

طاف شوقى فى غرف الحمراء ، وحجرانه الرحبة الواسعة وكلها آية فى الروعة والجمال زاهية بالنقوش الدقيقة ، ووقف قليلا بقاعة الشعراء وهى أجل غرف الحمراء وفيها كان ملوك بنى الأحمر يقابلون رسول ملوك الإفرنج .

---

(١) الشوقيات ٥٠ ، ٥١ / ٢
(٢) الندس : الفهم .
(٣) عصائب برس : أى بيض كالقطن .

وشعراءهم وتحوى جدرانها أبدع النقوش والخطوط ، وهى تطل على حى البيازين من غرناطة من جهاتها الثلاث ، والجهة الواقعة تفضى إلى قاعة البركة ومنها إلى ساحة الريحان ، تحيط به سبعة من الأسود المرمرية وتولين ظهورها ، والماء يتدفق من أفواهها عذبا صافيا فتلتقط شاعرية شوقى هذه الصورة(١) :

لا (الثريا) ولا جوارى الثريا يتنزلن فيه أقمار إنس
مرمر قامت الأسود عليه كلة الظفر . لينات المجس
تنثر الماء فى الحياض جمانا يتغزى على ترائب ملس

ثم يتلفت الشاعر حوله ، يبحث عن ملكات بنى الأحمر ، فأين هى الزباء زوج أبى الحسن على أحد ملوك بنى الأحمر قيل أبى عبد الله الصغير ، واين حسن جواريها ؟ إن مجلس السباع كئيب مقفر خال :

وترى مجلس السباع خلاء مقفراً القاع من ظباء وخنس
لا (الثريا) ولا جوارى الثريا يتنزلن فيه أقمار إنس(٢)

هكذا بدت غرف الحمراء لعينى شوقى ، حزينة (أخنت عليها الحادثات) وأثقلها الألم .

مشت الحادثات فى غرف (الحمـ ـراء) مشى النعى فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سدة الباب من سمير وأنس(٣)

ويخرج شوقى من الحمراء وفى نفسه حرقة وألم ، فكيف أضاع العرب مثل هذا الملك الزاهر وكيف تخلو عنه وتركوه وخرجوا أذلة صاغرين !

لقد بنى الأجداد فهدم الأحفاد ، وباع الوارث تراثه المجيد بثمن بخس . وعندما يصل شوقى إلى فندق (واشنطون) حيث يقيم مع

---

(١) الشوقيات ٢/٥١ .
(٢) الشوقيات ٢/٥١ .
(٣) نفس المرجع .

مع أسرته فى قلب الغابه المحيطة بالحمراء يقف طويلا أمام الصورة الزيتية المعلقة فى بهو الفندق ، والتى تمثل الملك العربى أبا عبد الله آخر ملوك غرناطة، وهو يسلم فى خضوع مفاتيح المدينة إلى الملوك الكاثوليك وتثور فى نفس شوقى العربى المسلم حسرات وآلام وهو يرى النهاية الحزينة لقصة المجد العربى فى الأندلس ، فيحمل حملة عنيفة على ذلة ابن عبد الله الصغير واستسلامه(١) :

ومفاتيحها مقاليد ملك ... باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم فى كتائب صم ... عن حفاظ كموكب الدفن خرس(٢)
رب بان لهادم — وجموع ... لمشت ، ومحسن لمخس
إمرة الناس همة ، لا تأتى ... لجبان ، ولا تسنى لجبس(٣)

ومن الروح الأندلسية عند شوقى قصيدته القومية التى عارض فيها ابن زيدون .

بين شوقى وابن زيدون

ابن زيدون هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومى القرطبى(٤) ، ولد بقرطبه عام ٣٩٤ هـ — (١٠٠٤) م ونشأ بها وتثقف ، وكان أبوه من وجوه الفقهاء وكبار القضاة ، وكانت قرطبة فى ذلك الوقت

---

(١) الشوقيات ٥١ ، ٥٢ / ٢ .
(٢) الحفاظ : الذب عن المحارم .
(٣) الجبس : الجبان .
(٤) راجع فى ذلك . الفن ومذاهبه فى الشعر الحديث ص٤٣٨،د.شوقى ضيف ، الشعر والبيئة فى الأندلس ص ٧٨ الدكتور ميشال عاصى ، بإيجاز عن دائرة المعارف للبستانى جـ٣ ص ١٤٧ .

تزخر بالعلم والأدب ، فدرس على أبيه وعلى علماء قرطبة وأدبائها الأدب وحفظ كثيرا من الشعر والأخبار والسير والأمثال ومباحث اللغة ، وأخذ يعالج فنون الأدب حتى برغ فيها فتم فضله وذاع صيته ، وارتفعت مكانته .

وبينما كان ابن زيدون يسعى إلى التألق كانت شمس الدولة الأموية فى الأندلس تميل إلى الغروب ، وكان بنو جهور كغيرهم من الطوائف يحاولون الإفادة من ضعف السلطة المركزية للاستقلال بالأطراف ، فمال إليهم ابن زيدون حتى إذا وصل أبو الحزم ابن جهور إلى الحكم سنة ٤٢٢ هـ اتصل ابن زيدون بابن جهور أحد ملوك الطوائف فاتخذه كاتبا ومشيراً ونال ابن زيدون مركز الوزارة والسفارة لدى ملوك الطوائف فلقب (بذى الوزارتين)(١) .

يقول الدكتور زكى مبارك(٢) (وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة فابتلته ببليتين لا يبتلى بهما رجل كريم إلا عرف كيف يكون العز والذل والشهد والعلقم والنعيم والجحيم .

أما البلية الأولى فهى الحب ؛ وأما البلية الثانية فهى المجد وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق .

فتراه غارقا فى حب ولاده بنت الخليفة المستكفى ؛ وكان ابن عبدوس ينافسه فى هذا الحب ويظهر أنه كان أحد من وشى به إلى أبى الحزم، إذ نسبت إليه مؤامرة ضده للعودة بزمام الأمور إلى بنى أمية ، فأودع السجن سنوات طوال ، وهو يضرع إلى أبى الحزم بشعره ورسالته الجدية(٣) .

---

(١) راجع الشعر والبيئة فى الأندلس ص ٧٨

(٢) الموازنة بين الشعراء ص ٢٤١ د. زكى مبارك

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٢٩

واستشفع بابنه أبي الوليد ولكنه لم يعف عنه فهرب من السجن ليلة عيد؛ ولجأ إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤٨ هـ فاستخلصه لنفسه واتخذه وزيراً له ، ومن بعده اتخذه ابنه المعتمر وزيره ومستشاره واستطاع بفضل جهوده أن يغزو قرطبة ويستولى عليها ، وتوفى فى إشبيلية عام ٤٦٣ هـ .

ولم تكن خصومة ابن زيدون لابن عبدوس ترجع إلى أسباب سياسية وإنما كانت ترجع إلى حبه لولادة بنت الخليفة المستكفى . وكانت مشهورة بالجمال والأدب شاعرة سافرة تساجل الشعراء ، وتجادل العلماء وكانت دارها ناديا من أندية قرطبة ، يغشاها الأمراء والوزراء والأدباء والقادة ومن هؤلاء ابن زيدون، فقد كانت فيه خفة(١) روح، وحسن دعابة ، وبراعة أدب، فسبق للمتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله وبادلته هى هذا الحب ؛ فأذكى هذا الفوز نار الحسد فى قلوب منافسيه ومزاحميه فسعوا فى الإفساد بينهما .

يقول صاحب الذخيرة إنها « أوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها . كتبت — فيما زعموا — على أحد عاتقى ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتى من يشتهيها(١)

ولكن ابن عبدوس عاد إلى ولادة وظفر برضاها فكتب ابن زيدون رسالته الهزلية فى الاستهزاء بغريمه الوزير « ابن عبدوس » فى حب ولادة(٢) .

---

(٢) ابن زيدون د/ حسن جاد حسن

(٢) الذخيرة ١/٣٧٦ .

(٣) النبع الصافى ص١٩٧ . د/ محمد السعدى فرهود .

وقصيدته الحاوية لمعانى حبه ، المسجلة لشتى آلامه . الممثلة لآماله فى الحب وأحلامه التى هى فى شعر الأندلس كله نجم يتألق . وعلم يخفق قوله يخاطب ولادة ومطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

وهى أعظم قصائد ابن زيدون حظا من الذيوع والشهرة وبعد الصيت ولو لم يكن له سواها لاغنته بهذا الدوى الذى أحدثته فى البيئات الأدبية وتلك المدرسة التى خلقها من الشعراء الكثيرين فى كل عصر . الذين أعجبوا بها وعارضوها .

فمن الذين عارضوها أحمد شوقى وهو شاعر بينه وبين ابن زيدون تشابه فى النفس والمجد والحب ، إلا أن الحب عند ابن زيدون حب لولادة والحب عند أحمد شوقى هو حب مصر ، وكلاهما جمعه الحب فيما (أحب) ، وكلاهما يصدر فى قصيدته عن شعور صادق وألم دفين ، وكلاهما يصور فيها لوعة البين وذل الحرمان . ووحشة الغربة . والحنين لمن أحب ، وذكرى أيام الأنس والصفاء .

يقول زكى مبارك :

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء فى جميع البلاد العربية وهى فى الشعر العربى تذكر بليالى ميسيه فى الشعر الفرنسى . فكما أن الفرنسيين جميعا يعرفون ليالى ميسيه . فالعرب يعرفون جميعا نونية ابن زيدون(١) .

وسأبدأ بعرض النونية لابن زيدون(٢) .

---

(١) الموازنة بين الشعراء ص ٣٤٤

(٢) ديوان ابن زيدون ص١٦٥ و١٦٦ و١٦٧ شرح وتحقيق محمد سيد كيلانى : ابن زيدون وشعره ص ٥٧ ، ومحمد السعدى فرهود . ديوان ابن زيدون ورسائله ص ١٤١ على عبد العظيم .

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ألا وقد حان صبح البين صبحنا ... حين فقام بنا للحين داعينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم ... حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذى ما زال يضحكنا ... أنسا بقربهم قد عاد يبلينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نغص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا ... وأنبت ما كان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا ... فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
ياليت شعرى ولم نعتب أعاديكم ... هل نال حظا من العتبى أعادينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم ... رأياً ولم نتقلد غيره دينا
ما حقنا أن تقروا عين ذى حسد ... بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه ... وقد يئسنا فما للياس يغرينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا لياليا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومربع اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانية ... قطافها فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... أن طالما غير النأى المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا سارى البرق القصر واسق به ... من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك عنى تذكرنا ... إلفا تذكره أمسى يعنينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من على القرب حيا كان يحيينا
فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة ... منه وإن لم تكن غبا تقاضينا
ربيب ملك كأن الله أنشأه ... مسكا وقدر إنشاء الورى طينا
أو صاغه ورقا محضا وتوجه ... من ناصع التبر إبداعا وتحسينا

إذا تأود آدته رفاهية ... توم العقود وأدمته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا فى أكلته ... بل ما تجلى لها إلا أحايينا
كأنما أثبتت فى صحن وجنته ... زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ما ضر أن لم تكن أكفاءه شرفا ... وفى المودة كاف من تكافينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... وردا جلاه الصبا غضا وتسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها ... منى ضروبا ولذات أفانينا
ويا نعيما خطرنا من غضارته ... فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة ... وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
إذا انفردت وما شوركت فى صفة ... فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها ... والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قد غض من أجفان واشينا
إن كان قد عز فى الدنيا اللقاء فنى ... مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
لا غرو فى أن ذكرنا الحزن حين نهت ... عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله ... شربا وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه ... سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناه عن كثب ... لكن عدتنا على كره عواديا
تأسى عليك إذا حثت مشعشعة ... فينا الشمول ورغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا ... سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
دومى على العهد ما دمنا محافظة ... فالحر من دان إنصافا كما دينا
فما استعضنا خليلا منك يحبسنا ... ولا استفدنا حبيبا عنك يثنينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه ... بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا
أولى وفاء وإن لم تبذلى صلة ... فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا

وفى الجواب متاع إن شفعت به بيض الأيادى التى مازلت تولينا
عليك منى ســـلام الله مابقيت صبابة بـك نخفيهـا فتخفينا

الموازنة بين النونين

عرفنا ابن زيدون العاشق الذى يحسن التحدث عن مآسى القلوب ، ويكاد يعرف أسرار النفوس ، ولكن كيف نستكثر القول فى شوقى ، إن نونية شوقى أعجوبة الأعاجيب وقد أرسلها فى أعقاب الحرب العالمية من الأندلس فضج لها شعراء مصر .

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان وكانت الأبيات السبعة التى تحدث بها عن جواه زفرة محرقة ولكن أين هى من بداية شوقى حين خاطب الطائر الحزين فى وادى الطلح بضاحية إشبيلية قائلا .

يانائح الطلح أشباه عـــوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

إلى أن قال :

لم تألم مالك تحنانا ولا ظمـــأ ولا ادكارا ولا شجوا أفانينا

والشاعر فى هذه الأبيات حيران ؛ يجعل الطائر فى حالين : حال المغترب وحال المقيم ، ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد مايريد نراه بلغ غاية الرفق حين قال :

تجر من فنن سافاً إلى فنن وتسحب الذيل تزداد المؤاسينا

وهى حال تشهدها فى الطائر المحزون . فقد نرى الطائر يتنقل على غير هدى من أيك إلى أيك فتعرف أنه يبحث عمن يواسيه .

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان إلى معاتبة حبيبته فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء . أما شوقى فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر فقال :

آها لنا نازحى أيك بأندلس وإن حللنا رفيقا من روابينا !!
رسم وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والاجلال يثنينا

إلى أن قال :

كادت عيون قوافينا تحركه وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا

ولنا أن نتأمل الحسن فى هذه الأبيات ، فالشاعر يغلبه الدمع ، وهو يتذكر ملوك الأندلس ، ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء ، لأنه فى ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود ، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله .

ثم قال شوقى فى الحنين إلى وطن النيل :

لكن مصر وإن أغضت على مقة عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنـــا وحول حافاتها قامت رواقينا

ويذكر ابن زيدون :

ياسارى البرق غاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عنى تذكرنا إلفا تذكره أمسى يعنينا

وقد عارضه شوقى فقال :

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع السماء دما هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه على نيام ولم تهتف بسالينا

إلى أن قال :

وحازك الريف أرجاء مؤرجة ربت خمائل واهتزت بساتينا

فنرى ابن زيدون يسأل البرق أن يسقى القصر وأما شوقى فيسأل البرق

أن يأسو المنازل الذاوية، والمغانى الضاوية والمنيان مقتربان، لكن شوقى أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق ، وأعطى صورا من ريف مصر وخمائل مصر ، لا تشوق إلا شاعرا ودع دنياه حين ودع النيل.

وقال ابن زيدون :

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا   من لو على البعد حيا كان يحيينا

عارضه شوقى فقال :

ويا معطرة الوادى سرت سحرا   فطاب كل طروح من مرامينا
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها   قميص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا   بالورد كتبا وبالريا عناوينا
فلو جزيناك بالأرواح غالية   عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا
هل من ذيولك مسكى نحمله   غرائب الشوق وشيا من أمالينا

إن ابن زيدون قال « يا نسيم الصبا » وهو تعبير ورد فى قصائد عديدة أما شوقى فوصف النسمة بأنها معطرة الوادى ، وأنها سارت فى السحر فطاب بمسراها كل مرمى سحيق وأنها ذكية الذيل كأنها قميص يوسف وأنها جشمت شوك السرى حتى أتت بالورد يجسها فى رسائل .

وابن زيدون يقول « بلغ تحيتنا » وهى عبارة وردت فى صورة الأمر وبالتالى فهى جافية أما شوقى فيترفق ويقول :

هل من ذيولك مسكى تحمله   غرائب الشوق وشيا من أمالينا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحية وشوقى يجعل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو فى صفاء الدين .

وتذكر ابن زيدون أيام الأنس فقال :

حالت لفقدكمو أيامنا فغدت   سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

إلى قوله :

ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتما لأرواحنا إلا رياحينا

وهو شعر رائع المعانى ، صافى الديباجة ولكن شوقى عارضه فجمع بين الأسى والفخر حين قال :

شقيا لعهد كأكناف الربى رفة أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غيناء ذاهية ترف أوقاتنا فيها رياحينا

إلى قوله :

ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا ماء لمسنا به الأكسير أو طينا

ولا ندرى أيهما أجود لأن ابن زيدون على قصر نفسه بلغ غاية الدقة والرشاقة حين قال :

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومربع اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانية قطوفه فجنينا منه ماشينا

والدقة فى البيت الأول تؤخذ من صدق التعليل ، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل التآلف ، تآلف القلبين ، واللهو لم يصف مورده إلا بالتصافى ، تصافى الحبيبين ، والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء ، فهى تصفو حين تصفو النفوس ، وتقسو حين تقسو القلوب .

ويروقنا قول شوقى :

سقيا لعهد كأكناف الربى رفة أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غيناء ذاهية ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش ناغية والسعد حاشية والدهر ماشينا
والنيل يقبل كالدنيا إذا اختلفت لو كان فيها وفاء للمصافينا

الشاعر هنا جعل عهده فى نضرة الزهر الذى يتفتح فى أكناف الربوات ولأنه رأى اللين فى أيام الأنس شبيها باللين فى أعطاف الصبا جوهر نبيل

لا يعرف طيب لينها إلا شاعر امكنته من اعطاف الصبا سورة الصبوات ، والشاعر يرى إقبال النيل كالدنيا حين تحتفل ، وهذه الطرافة فى أخيلة شوقى لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شىء حين قال :

يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها ... منى ضروبا ولذات افانينا
ويا نعيما خطرنا من نضارته ... فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا

إننا نرى العذوبة فى الهتاف بالروضة ، ونتأمل عبارة « أجنت لواحظها » كيف تعزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق ، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة ، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يهصر الأفنان ، وكيف يجنى القطوف .

واشترك ابن زيدون وشوقى فى التفجع والحنين فقال ابن زيدون :

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والدهر قد غض من أجفان واشينا

إلى قوله :

ولا اختيارا تجنبناه عن كثب ... لكن عدتنا على كره عوادينا

والشاعر فى هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف ويرى نفسه انتقل من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسلين ، ويرى ورد الهوى القديم شربة لا يعدله شرب ، وإن كان يرويه فيظميه ، ويقيم الوصل يرهف الحس فيزيد القلب ظمأ إلى ظمأ .

وعارضه شوقى فوصف قسوة الليل وقسوة الفراق .

ونابغى كأن الحشر آخره ... تمينا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوى دجاه بجرح من فراقكمو ... يكاد فى غلس الأسحار يطوينا

إلى قوله :

يبدو النهار فيخفيه تجلدنا للشامتين ويأسوه تأسينا

وشوقى هنا يرى أشجانه لا تهدأ نهارا إلا بفضل التأسى والتجلد للشامتين.

وقد تفرد ابن زيدون بأبيات فى خطاب حبيبته التى اقصاه عنها الزمان حين قال :

تأسى عليك إذا حثت مشمشعة فينا الشمول وغنانا مغنينا

لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

فالشراب والغناء يهيجان العواطف الخافية ، ويبعثان الوجد الدفين وهذا من أدق المعانى النفسية ، وللشوقى فى أمثال هذه اللحظات لذعات أعنف من الجمر المشبوب ، وأين الجمر بجانب ما يثور فى القلب عند الشراب والسماع .

وأيضا قال ابن زيدون :

ولو صبا نحونا من علو مطلعه بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

وهو أصل المعنى الذى ساقه شوقى فى السينية :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وهو أخذ رقيق لا يحاسب عليه الشعراء .

وتفرد أيضاً بوصف الجمال الإنسانى فقد اعطى محبوبته صورة هى تحفة فى الصور الانسانية عندما قال :

وبيب ملك كأن الله أنشأه مسكا وقدر إنشاء الورى طينا

أو صاغه ورقا محضا وتوجه من ناصع التبر ابداعا وتحسينا

إذا تأود آدته رفاهية تهم العقود وآدته البرى لينا

كانت له الشمس ظئرا فى أكلته بل ما تجلى لها إلا أحايينا

كأنما أثبتت فى صحن وجنته زهر الكواكب تعويذا وتزيينا

ماضر إن لم نكن أكفاءه شرفا وفى المودة كاف من تكافينا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصياحة ؛ وفى الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون فى علم الجمال ، فالجمال المنعم غير الجمال المحروم ، والزهر النضير الذى يضاحك الشمس فى حديقة غناء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمآن المنسى الذى يتفتح وهو مهجور فى ربوة قاصية لا يعرفها غير الذئاب . وابن زيدون يتمثل محبوبته خلقت من المسك ، ويرى الناس ما عداها خلقوا من طين .

وتفرد شوقى بالفخر ، الفخر بنفسه وبأمجاد النيل فقال :

لم يجر للدهر أعذار ولا عرس إلا بأيامنا أو فى لياليا
ولا حوى السعد اطفى فى أعنته منا جياداً ولا أرحى ميادينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق إذا تلون كالحرباء شانينا

إلى قوله :

إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا خمائل السندس الموشية الفينا

وتفرد أيضا بقوة الفخر حين قال :

ولم يضع حجراً بان على حجر فى الأرض الا على آثار بانينا

ولنا أن نعجب من روعة الخيال فى قوله :

كأن أهرام مصر حائط نهضت به يد الدهر لا بنيان فانينا

ونرى دقة التشبيه فى هذا البيت :

كأنها ورمالا حولها التطمت سفينة غرقت الا أساطينا